

التعامل مع ظاهرة الانحلال والتفريط في ضوء السيرة النبوية

د/أبوبكر كافي قسم الكتاب والسنة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة

إن السيرة النبوية مصدر مهم يستلهم منه الدعاة والمصلحون ما يعينهم على إصلاح الأفراد والمجتمعات، إذ جاءت الرسالة الخاتمة لتغير أوضاع العالم وإصلاحها من جميع الجوانب: الدينية والفكرية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكون هذه الندوة مخصصة للقضايا الاجتماعية في ضوء السيرة النبوية، سأعرض في مداخلتي هذه لظاهرة اجتماعية خطيرة لها انعكاساتها السلبية على الأفراد والمجتمعات، نتوخى خطى الحبيب-صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع هذه الظاهرة وكيفية معالجتها، وما هي السبل والوسائل التي وظّفها النبي -صلى الله عليه وسلم- للحد منها، وحماية المجتمع من أخطارها، وتحصينه من آثارها، هذه الظاهرة هي: الانحلال والتفريط، ومنهج السيرة النبوية في التعامل معها. وفق الخطة الآتية:

المطلب الأول: تعريف الانحلال والتفريط لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: عناية السيرة النبوية بعلاج الانحلال والتفريط.

المطلب الثالث: الوسائل المستعملة في علاج الانحلال والتفريط.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: تعريف الانحلال والتفريط لغة واصطلاحاً.

التفريط لغة:

مصدر قولهم: فرّط في الأمر يفرّط بمعنى قصر، وهو مأخوذ من مادّة (ف ر ط) التي تدلّ على إزالة شيء عن مكانه، وتنحيته عنه. يقال: فرّطت عنه ما كرهه، أي نحيته، هذا هو الأصل، ثمّ يقال: أفرط إذا تجاوز الحدّ في الأمر. يقولون: إياك والفرط، أي لا تجاوز القدر. وهذا هو القياس، لأنّه إذا جاوز القدر فقد أزال الشّيء

عن جهته، وكذلك التفريط، وهو التّقصير، لأنّه إذا قصر فيه فقد قعد به عن رتبته التي هي له ¹.

والفراط: المتقدّم السابق، ويقال: فرط يفرط فروطاً .. وفرط إليه رسوله: قدّمه وأرسله، وفرطه في الخصومة: جرّأه. وفرط القوم يفرطهم فرطاً وفراطة: تقدّمهم إلى الورد لإصلاح الأرشية والدّلاء ونحوها.

وفرطت القوم أفرطهم فرطاً أي سبقتهم إلى الماء. فأنا فارط، والفرط: الماء المتقدّم لغيره من الأمواه، والفراطة الماء يكون شرعا بين عدّة أحياء، من سبق إليه فهو له، والفرط: ما تقدّمك من أجر وعمل، وفرط الولد: صغاره ما لم يدركوا، وجمعه أفرط، وفي الدّعاء للطفّل الميّت: اللّهم اجعله لنا فرطاً، أي أجرا يتقدّمنا حتّى نرد عليه. وفرط فلان ولداً، وافترطهم: ماتوا صغاراً.

والإفراط: أن تبعث رسولا مجرداً خاصّاً في حوائجك. وفارطت القوم مفارطة وفراطاً، أي سابقتهم، وهم يتفارتون، وفلان لا يفترط إحسانه وبرّه، أي لا يخاف فوته. والفرطة: اسم للخروج والتّقدّم. وفي حديث أمّ سلمة قالت لعائشة- رضي الله عنها- إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم نهاك عن الفرطة في الدّين، يعني السّيق والتّقدّم ومجاوزة الحدّ. والفرط: الأمر يفرط فيه، وقيل: هو الإعجال، وقيل: النّدم، وفرط عليه يفرط، عجل عليه وعدا وآذاه، ومن ذلك قوله تعالى: قالوا ربّنا إنّنا نخافُ أن يفرطَ علينا (طه/ 45).

والإفراط: إعجال الشّيء في الأمر قبل التّثبت.

يقال: أفرط فلان في أمره أي عجل فيه. وفرط الشّهوة والحزن: غلبتهما، وأفرط عليه: حمّله فوق ما يطيق، وكلّ شيء جاوز قدره فهو مفرط. والفرط: الحين، وقيل:

الفرط أن تأتيه في الأيام ولا تكون أقلّ من ثلاثة ولا أكثر من خمس عشرة ليلة. وفرط: كفّ عنه وأمّله ².

وفرط الشّيء وفيه تفريطاً: ضيّع وقدم العجز فيه، وفرط في جنب الله، ضيّع ما عنده فلم يعمل، ومنه قوله تعالى: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله (الزمر/ 56) وأمره فرط أي متروك، وقوله تعالى: وكان أمره فرطاً (الكهف/ 28) أي متروكاً، ترك فيه الطّاعة وغفل عنها.

1 - المقاييس (4/ 490).

2 - اللسان: مادة «فرط» (368- 370).

وقال الطبري في تفسيره: ما فرطت في جنب الله، معناه فيما تركت من أمر الله، وقال القرطبي: قال الحسن: في طاعة الله، وقال الضحاك: أي في ذكر الله- عز وجل- قال: يعني القرآن والعمل به «1»³.

وفي الحديث «ليس في النوم تفريط، إنما التفريط أن لا يصلى حتى يدخل وقت الأخرى» وفرطه تفريطا: مدحه حتى أفرط في مدحه، مثل قرظته. وقال الخليل: فرط الله تعالى عن فلان ما يكره: نحاه، وأفرط الأمر إذا نسيه، فهو مفرط، أي منسي، وبه فسّر مجاهد وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أي منسيون.

التفريط والإفراط اصطلاحا:

قال الكفوي: الإفراط: التّجاوز عن الحدّ ويقابله التّفريط⁴. ويؤخذ منه أنّ التّفريط: هو التّقصير والوقوف دون الحدّ في الأمور.

وقيل: التّفريط في الأمر: التّقصير فيه، وتضييعه حتى يفوت⁵.

التفريط والإفراط مهلكة للفرد والمجتمع

لقد أمر الإسلام بالتّوسّط في الأمور كلّها، فقال سبحانه: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقرة/ 143) والوسطية التي هي سمة هذه الأمة يضيّعها أمران: أحدهما: التّقصير الذي هو التّفريط وما يترتّب عليه من تضييع الحقوق، والتّكاسل عن أداء الواجبات، وينجم عن ذلك تأخّر الأمة في المجالات الاقتصادية من زراعية وصناعية وتجارية وغيرها، وعلى حسب درجة التّفريط يكون اعتماد الأمة على غيرها، ذلك الاعتماد الذي يفقدها استقلالها وإرادتها ويجعلها عالية على من يقدم لها المساعدة.

ثانيهما: الإفراط وهو على العكس من ذلك، يؤدّي إلى الغلوّ والإسراف والتّطرّف في الأمور كلّها، وقد يحسب هؤلاء المفرطون أنّهم يحسنون صنعا، إذ يشدّدون على أنفسهم وعلى غيرهم، ولا يجنون من وراء ذلك إلاّ كما يجنيه المنبتّ الذي يهلك دابّته ولا يصل إلى تحقيق غرضه، وقد حدّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من هذا عندما

³ - انظر تفسير الطبري (11/ 19)، تفسير القرطبي (15/ 176).

⁴ - الكليات للكفوي (155).

⁵ - الصحاح للجوهري (3/ 1148).

قال: «إنّ هذا الدّين متين فأوغلوا فيه برفق⁶ وقد يحسب هؤلاء المفرطون أنّهم بتسرّعهم وتشدّدهم يقدّمون لأنفسهم ولأمّتهم، وأنّى لهم ذلك وهم يخالفون صريح ما جاءت به الآيات والأحاديث التي تنهى عن التّفريط والإفراط كليهما، وتدعوا إلى التّوسّط والاعتدال؟! وكم من فورة أعقبتها حسرة، وعجلة تبعثها ندامة، والواجب على كلّ مسلم ومسلمة أن ينأى عن التّفريط، وأن يبعد نفسه عن الإفراط حتّى يكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا مَنُوطَةٌ بِعَدَمِ التّفْرِيطِ وَالْإِفْرَاطِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا⁷.

أما الانحلال فلم نجد له تعريفاً محدداً في كتب اللغة والمصطلحات ، وهذه اللفظة بأصل وضعها اللغوي تدل على الانفكاك ، فقد جاء في المعجم الوسيط:

"حل ... العقدة حلا فكها،... و(انحلت) العقدة انفكت"⁸

وقد شاع استعمال هذا المصطلح في عصرنا للبعد عن الأخلاق الحميدة والانفكاك عن القيم السامية التي جاءت بها الشرائع، ودلت عليها العقول المستقيمة، و الفطر السليمة.

و الانحلال الخلقي ، يكون بترك المأمورات كالواجبات والمستحبات من الفضائل ومكارم الأخلاق، و بفعل المنهيات كالوقوع في المحرمات وقبائح الأخلاق.

المطلب الثاني: عناية السيرة النبوية بعلاج الانحلال والتفريط.

بعث النبي صلى الله عليه وسلم في قوم " ...كانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة ، وأسبابها فاشية ، فكان شرب الخمر واسع الشيوخ شديد الرسوخ فيهم تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسمائها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ، يرفرف عليها علم يسمى غاية قال لبيد:

قد بتُّ سامرها وغاية تاجر *** وافيت إذا رفعت وعز مُدامها

⁶ - مسند الإمام أحمد (3 / 199).

⁷ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - (9 / 4231)

⁸ - (1 / 193-194)

وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفاً لبيع الخمر ، وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عاراً ، قال قتادة : كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزينا سلبياً ينظر إلى ماله في يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً.

وكان أهل الحجاز ، العرب واليهود ، يتعاطون الربا ، وكان فاشياً فيهم ، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة ، وقال الطبري : كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين ، يكن للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضي وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حُقَّة ثم جَدَّة ثم رابعياً هكذا إلى فوق ، وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه.

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا إنما البيع مثل الربا ، وقال الطبري إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمة يقول الغريم لغريم الحق : " زدني في الأجل وأزيدك في مالك " فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك : هذا ربا لا يحل ، فإذا قيل لهما ذلك قالوا : سواء علينا زدنا في أول البيع أو عند محل المال⁹.

ولم يكن الزنى نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يُكرهون بعض النساء على الزنى ، قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجورهن .

قالت عائشة : " إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجاة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد أن

⁹ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - (1 / 54)

تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن ارادهن دخل عليهن فإذا حملت إحدهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك"10 .

في ظل هذه الأوضاع المتردية ، والانحلال الأخلاقي ، والهبوط القيمي جاء النبي برسالة شاملة كاملة تعالج كل أدواء العالم ، وترسي أسس مجتمع صالح ، وقد بين مقاصد هذه الرسالة بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"11 .

قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: " الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ " 12

10- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - (1 / 102).

11 - أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة المغني عن حمل الأسفار - (1 / 463)

وقال السخاوي في المقاصد الحسنة للسخاوي - (1 / 180)
"أورده مالك في الموطأ بلاغا عن النبي وقال ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا منها ما أخرجه أحمد في مسنده والخرائطي في أول المكارم من حديث محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ (صالح الأخلاق) ورجاله رجال الصحيح والطبراني في الأوسط بسند فيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف عن جابر مرفوعا (إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال) ومعناه صحيح وقد عزاه الديلمي لأحمد عن معاذ وما رأيته فيه والذي رأيته فيه عن أبي هريرة"
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد - (8 / 573): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار إلا أنه قال : " لأتمم مكارم الأخلاق " ورجاله كذلك غير محمد بن رزق الله الكلوذاني وهو ثقة"، وهو مخرج في السلسلة الصحيحة للألباني رقم(45)

12 - مسند أحمد ط الرسالة - (4 / 17) رقم (2108) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ الشَّيْخُ شُعَيْبٌ: صَحِيحٌ لغيره، فيه محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وداود بن الحصين ثقة مشهور لكن له غرائب تُستتكر.

وأخرجه عبد بن حميد (569) ، والبخاري في "الأدب المفرد" (287) من طريق يزيد بن هارون، بهذا الإسناد.

وعلقه البخاري في "صحيحه" 93/1 في الإيمان: باب الدين يسر، وحسن الحافظ إسناده في "الفتح".

وله شاهد بسند قوي من حديث عائشة مرفوعاً: "إني أرسلتُ بحنيفية سَمْحَة" وسيأتي في "المسند" 116/16 و233.

وآخر من حديث أبي أمامة عند أحمد 266/5، والطبراني (7868) .
وثالث من حديث جابر عند الخطيب 209/7، وابن النجار في "ذيل تاريخ بغداد" 5/3، وسنده ضعيف.

ورابع عن حبيب بن أبي ثابت مرسلأ عند ابن سعد في "الطبقات" 192/1.

وقد كانت الدعوة إلى أصول الأخلاق والبعد عن الانحلال بكل صورته ، معلما بارزا في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم- شهد بها العدو قبل الصديق .

فهذا جعفر بن ابي طالب يلخص دعوة الإسلام للنجاشي في جمل قليلة يركز فيها على كبرى القضايا التي جاء بها الدين الجديد فيقول للنجاشي:

"فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأت الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قالت فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك"¹³.

وكذلك لم يسع عدوه ابو سفيان حال عداوته أن يذكر هذه المضامين المشرقة التي جاءت في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لما سأله هرقل عظيم الروم قائلا:

مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فقال أبو سفيان: " يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَاةِ"¹⁴.

وقوله: "الحنيفية" قال السندي: أي الملة المنسوبة إلى إبراهيم يريد دين الإسلام الذي بعث به نبينا عليه الصلاة والسلام، فإنه يشارك دين إبراهيم في كثير من الفروع مع الاتحاد في الأصول، فلذلك ينسب إلى إبراهيم، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، والسمة: بفتح السين وسكون الميم: أي التي تسهل على النفوس، لا كالرهبانية الشاقة عليها.

¹³ - السيرة النبوية : ابن هشام (2 / 179).

¹⁴ - صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي رقم(7) (1 / 9).

هذه هي المضامين السامية ، والمقاصد العالية هي التي جعلت كثيرا من العقلاء يذعنون لهذا الدين ويتبعون هذا النبي، وكان مضمون هذه الرسالة من أكبر الأدلة على صدق صاحبها ، وكونه نبيا رسولا ، وهاديا للبشرية جمعاء.

المطلب الثالث: الوسائل المستعملة في علاج الانحلال والتفريط.

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية؟؟

يجيب الشيخ أبو الحسن الندوي عن هذا السؤال فيقول: "بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن ، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة ، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة .

عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها ، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاق إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة ، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له ، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه ، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملئ على العالم إرادته وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم : {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ } .

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، ولا يتبوأ منها المكانة العليا ، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً ، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر .

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية في نطاق محلي ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم ، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة ، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصده ، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً في التاريخ .

وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها الوداع ويقول : سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده .

وهذا عمرو بن العاص كان يُعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة .

وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتبية ، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن ، وينيط باسمه فتح العراق وإيران .

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبدان في إحدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق إلى رق ومن قسوة إلى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها ، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال .

وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقيه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد .

وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول : لو كان حياً لاستخلفته .

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبي بكر وعمر .

وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ، تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزُّهاد المعدودين والعلماء الراسخين .

وهذا علي بن أبي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبر الناس قلوباً وأعظمهم علماً وأقلهم تكلفاً ، يتكلمون فينصت الزمن ويخطبون فيسجل قلم التاريخ¹⁵ .

الخاتمة: من خلال السيرة النبوية العطرة يمكن أن نضع مشروعاً للرقى بالأمة الإسلامية، تكون الأخلاق فيه محورا أساسا. وهدفاً كلياً تلتقي فيه كل الهمم، وكل

الدعاة والجماعات ، وتتوافق عليه كل العقول الراشدة، وهذا بعد تحقيق التوحيد والعبودية المطلقة لله رب العالمين.

ويمكن أن تكون الأخلاق الفطرية التي اتفقت عليها كل العقول والملل والشرائع جامعا مشتركا بين كل المذاهب والجماعات بل حتى مع الديانات الأخرى التي لا تؤمن بالإسلام، ولكن تقيم للأخلاق وزنا، وتعطي للقيم مساحة أساسية في مبادئها.

وهكذا نستطيع أن نحقق واجبات التمكين لهذا الدين قال تعالى "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (الحج:41)

فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِشَارَةً إِلَى نَشْرِ السُّمُو الرُّوحِي، وَآتَوُا الزَّكَاةَ إِشَارَةً عَلَى نَشْرِ الْعَدْلِ الْاجْتِمَاعِي، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ إِشَارَةً إِلَى نَشْرِ الصَّلَاحِ بِكُلِّ مَعَانِيهِ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ إِشَارَةً إِلَى الْكُفِّ عَنِ الْفَسَادِ بِكُلِّ صُورِهِ.

وصلى الله على حبيبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تسليما كثيرا.